

الرغم من أن لكل نوع خصوصيته ومجاله المحدد، فإنه من المفيد تفحص العلاقة التي تربط كل نوع بالأنواع الأخرى المجاورة أو البعيدة.

وهكذا فإن دراسة التعريف تتطلب منا أن نأخذ بعين الاعتبار، لا النوع الذي ينتمي إليه النص فحسب، ولكن كذلك أنواعاً أخرى. وهذا يقتضي منا أن ننيز مفهوم التعبير المباشر عن الذات، فالكاتب لا يعبر إلا بما يسمح له النوع الذي يكتب فيه، النوع كما يتحدد في فترة ثقافية معينة. إن من يربط المنقذ من الضلال، مثلاً، بالغزالي، لا يصل إلى نتيجة مقنعة. دراسة هذا النص لا بد لها أن تتطرق إلى ترجمتي المحاسبي وابن الهيثم، وكذلك إلى الترجمة المنسوبة إلى الطبيب برزويه والتي نجدها في بداية كليلة ودمنة. هذه النصوص جميعها تهدف إلى البحث عن الحقيقة، وهو بحث يتم عبر نماذج ثقافية وداخل إطار يتعدى الفرد.

اغلب الظن أن مسألة التعبير عن الذات - التي لا يرد ذكرها في النقد القديم - أخذت تتبلور مع السيرة الذاتية الحديثة، المبنية على الاختلاف. فالذي يكتب اليوم حياته يسعى إلى إثبات تميزه عن باقي الناس، وبالتالي إثبات وحدته. أن أسرد حياتي معناه أن أعلن، صراحةً أو ضمناً، بأنني أختلف عن باقي الناس. بل إن هذا الاختلاف هو الذي يسوغ كتابة السيرة الذاتية.

وعلى العكس فإن الحديث عن الذات في الأدب القديم ينبني لا على الاختلاف، وإنما على موضع الذات في سلم ترتيبي. أن أتكلّم عن نفسي معناه في هذه الحالة أن أعلن هل أنا أسمى، أرفع منزلة، أعلى مقاماً من شخص آخر أم لا، أعلى مقاماً أو أخط في خاصية من الخاصيات، في فضيلة من الفضائل أو رذيلة من الرذائل.⁽⁴⁾